المجلة اللاهوتية المصرية ٤ (٢٠١٧): ٧–١٧
http://journal.etsc.org

العولمة والمسيحية والشرق الأوسط

هيلين ميرا-فان دِن بيرخ Heleen Murre-van den Berg*
(h.murrevandenberg@ftr.ru.nl)
جامعة رادبود نايميخن Radboud University Nijmegen

شارَفَتْ فترة ما بعد الظهيرة الصيفيّة الحارة، في شمال شرق سوريا، على الانتهاء. وبدأ العديد والعديد من الناس في التوافد على ساحة دير الشهيدة مريم في تل ورديات، في موقع لا يَبعُد كثيرًا عن الطريق من الحسكة لتل تَمَر.[١] وانضم للحشد مجموعات من العائلات الصغيرة والكبيرة، بما في ذلك الأطفال الذين بالكاد يستطيعون المشي وكبار السن الذين يعتمدون على عُصِيّهم للمشي. دلف العديد منهم إلى الكنيسة، رشموا الصليب وصلّوا وقبّلوا قراءات الإنجيل، ثم عادوا إلى الساحة. وهناك ألقوا التحية على الراهب أبونا أفريم، وقبّلوا خاتمة واستمعوا لكلمات الترحيب منه. وبدأ، بعدها بقليل، في صلاة **رامشو**، صلاة المساء، وساعده فيها مجموعة من الفتيان الصغار الذين تراوحت أعمارهم من السادسة وحتى السادسة عشر. ها هم يقفون في محاذاة بعضهم البعض في صفٍ طويل، يرددون الصلوات، ويُرنّمون الترنيمات في جوقات متناوبة، ويرشمون الصليب، وينحنون لأسفل بشدة، حتى أن جباههم لامست الأرض. واشترك العديد من الضيوف في الصلوات وفي الحركات الجسدية الإيقاعية.

وامتلأت، في ذلك الوقت، ساحة ضخمة مُخصصة لانتظار السيارات في الدير الأرثوذكسي السوري بالسيارات والطاولات والمقاعد. وجلست العائلات

* ترجمة سامح رهيف.

Originally published as: Heleen Murre-van den Berg, "Globalization, Christianity, and the Middle East," *Cairo Journal of Theology* 3 (2016): 7–18, http://journal.etsc.org.

١ تم عرض مقدمة هذه الورقة في الأصل كمحاضرة المؤلف الافتتاحية، ١١ يونيو ٢٠٠٩، في جامعة لايدن Leiden University وتم نشرها بالهولندية تحت عنوان:
"Globalisering, christendom en het Midden-Oosten" (Universiteit Leiden: 2009).

لتأكل وتشرب معًا، يقضون المساء في الثرثرة، ويتأملون الحقول الخصيبة المسطحة والممتدة نحو نهر خابور (الفرات) المحيط بالدير. إنه يوم الخامس عشر من أغسطس، عشية عيد الرقاد، وهي احدى الاحتفالات المسيحية الكبيرة في الشرق الأوسط. فيجتمع الصغار والكبار في الدير نعًا، مستمتعين بصحبة بعضهم البعض وبالتواجد في الدير.[٢]

تحدثتْ معي فتاة صغيرة باللغة الهولندية، حاملةً لَكنةً بسيطة تفضح نشأتها في القسم الشرقي من هولندا، بالقرب من انشيدّي Enschede. تنتمي أصول عائلتها لطور عابدين بتركيا. وقد جاءوا في صيف هذا العام لزيارة العائلة والأصدقاء، وكذلك لزيارة الدير المَبني حديثًا، الأمر الذي يغمرهم اعتزازًا. وتتطلع الفتاة لأنواع أخرة من الاحتفالات، ليس في الدير لكن في فنادق جديدة فاخرة بالقرب من مدينة القامشلي، حيث يمكن للمرء قضاء فترة ما بعد الظهيرة الحارة بجوار حمامات السباحة المتلألئة أو يتمتع بالطعام والموسيقى والرقص في ليالي الصيف الطويلة.

وعندما بدأت بعض النساء في الاستعداد للنوم في الكنيسة، تحركنا نحو تل نصري، وهي قرية ليست بعيدة عن الدير. وهنا نظّمت الكنيسة الآشورية الشرقية احتفال/عيد الرقاد الخاص بها. وقد لمعت الأبراج المُضاءة بشدة لكنيسة القديسة مريم الجديدة في ظلمة الليل. وعند حلول منتصف الليل، أصبحت الاحتفالية على قدم وساق، رغم ذهاب العديد من النساء هنا للنوم في العيادات الخارجية للكنيسة. فهنّ يحلمن ببركات خاصة، ربما يحملن بعد طول انتظار أو يحصلن على شفاء من مرض مزمن. إلا أن بقية القرية تتمتع بأجواء مهرجانية بلا ريب. حيث تأنّق الشباب في هندامهم، سائرين في الشوارع يغازلون ويضحكون؛ ويمتلئ الهواء برائحة الطعام وبصوت الموسيقى. ويبدو أن غالبية الناس في القرية مستيقظون، ويجلس الناس الأكبر سنًا في ساحات منازلهم

٢ يستند هذا الانطباع بالأخص على زيارة للمنطقة في أغسطس ٢٠٠٥. وللحصول على مقدمة قصيرة تخص تاريخ المسيحيين في المنطقة ووضعهم الراهن، انظر:
Georges Bohas, Florence Hellot-Bellier, *Les Assyriens du Hakkari au Khabour: Mémoire et histoire* (Paris, Geuthner, 2008); Alberto M. Fernandez, "Assyrian Christian Survival on the Khabur River," *Journal of Assyrian Academic Studies* 12.1 (1998): 34–47; Shabo Talay, *Die neuaramäischen Dialekte der Khabur-Assyrer in Nordostsyrien* (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2008).

يثرثرون ويتمتعون بأطباقهم الشعبية. ولا يُختتم الاحتفال إلا في اليوم التالي بقدّاس رفيع المستوى تشريفًا للقديسة مريم.

كنائس الشرق الأوسط

يصف ما ذُكر أعلاه احتفالاً معتادًا في الشرق الأوسط، لا يختلف كثيرًا عن طريقة احتفال المسلمين والدروز واليزيديين في أعيادهم. ورغم ذلك فهو احتفالٌ مسيحيٌّ، يُبرز بشكل عام العديد من الملامح التي تُميّز المسيحية في المنطقة: وهي مزيج من الطقوس الطائفية، والتقوى الفردية والاحتفاليات العامة. والعديد من هذه الملامح صفات مميّزة للكنيسة الأرثوذكسية، وهو مصطلح أستخدمه على نحو مطلق للإشارة إلى الكنائس التي ظهرت في القرون الأولى من المسيحية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية. ولهذا فالمصطلح يشمل تلك الكنائس التي تم اتهامها لاحقًا بالهرطقة، مثل الكنيسة الارثوذكسية السورية والكنيسة القبطية والكنيسة الآشورية الشرقية (المعروفة سابقًا بالنسطورية).[٣]

وإحدى السمات الرئيسية لهذه الارثوذكسية التي تم تعريفها على نطاق واسع هي أهمية ليتورجياتها [أنظمة عبادتها] اليومية والأسبوعية. وسواء حضر العديد من المخلصين أو حضر القليل، سواء كان هناك عشرون شماسٌ مساعدٌ أو واحد فقط، فهذه الليتورجية المقدسة تُشكّل قلب الكنائس الأرثوذكسية. وفي كل يوم أحد، وهو يوم العطلة المسيحي الرئيسي، وفي يوم القديس، فإن احتفال الافخارستيا يربط المجتمع المسيحي معًا، بمشاركة كل الحواس والجسد والعقل.

وتُستَكمَل هذه الاحتفالات الطقسية بمجموعة منوعة من الطقوس الأكثر فردية: كنوم السيدات في الكنيسة، وطلب الرجال والسيدات للبركة من شخصٍ تقي، وزيارات العائلات للأديرة وأضرحة القديسين. وعادةً ما تأخذ العائلات معها عند رحيلها قليل من التربة من تلك الأضرحة بغرض الحصول على

3 Ken Parry, *The Blackwell Companion to Eastern Christianity* (Oxford: Blackwell Publishing, 2007); Herman Teule, *Les Assyro-Chaldéens. Chrétiens d'Irak, d'Iran et de Turquie* (Turnhout: Éditions Brepols 2008); Martin Tamcke, *Die Christen vom Tur Abdin: Hinführung zur Syrisch-Orthodoxen Kirche* (Frankfurt am Main: Otto Lembeck, 2009).

الصحة العامة والصحة الإنجابية وعلى شريك حياة جدير بالثقة وعلى مستقبل جيد لأبنائهم. وقد يحمل البعض أيضًا صلوات للحماية مكتوبة على لفائف ورقية، مطويّة تحت الملابس أو بداخل البيت. وفي الوصف القياسيّ للأرثوذكسية، فهذه الممارسات عادةً ما كانت تُهمَل، لكن المشاركة الفعّالة من الكهنة والرهبان تشير إلى أن هذه الأشكال من الممارسة الدينية ليست سوى جزء لا يتجزّأ من الحياة الدينية الأرثوذكسية.[٤]

وتعكس الاحتفالات في شمال سوريا الحضورَ الشعبي القوي للمسيحية في الشرق الأوسط. ورغم أنه من الواضح أنّ الأرضَ المُقام عليها الدير والقريةَ التي يُعتبر تعداد سكانها كله من المسيحيين تقريبًا مقاطعةٌ مسيحية، إلا أن الاحتفالات ليست مغلقة في وجه الغرباء. ويمنح الطريقُ المجاور مشهدًا بلا عوائق للعديد من زوار الدير، كما تفعل الأبراج المُضاءة بشدة لكنيسة تل نصري. ويتم الترحيب بكل مَن يرغب في المجيء وإلقاء نظرة – ففي واقع الأمر تأتي العديد من العائلات المحلية المسلمة، لكن في الأوقات الأقل ازدحامًا بالمسيحيين. وهذا الحضور المسيحي الجلي يتوازى مع الحضور الشعبي القوي للإسلام، والذي نما في العقود الأخيرة من خلال العديد من المساجد الجديدة، الكبيرة والصغيرة، المنتشرة في جميع أرجاء الدولة. فاستجاب المسيحيون في مقاطعة خابور، أينما أمكن فيها، ببناء كنائس وأديرة مماثلة جديدة وضخمة.

إلا أن، هذه الأديرة والكنائس الجديدة تعكس أيضًا التنافس المسيحي الداخلي: فالكنيسة الجديدة الضخمة التابعة للكنيسة الآشورية الشرقية في تل نصري ليست سوى رد فعل جلي للدير الأرثوذكسي السوري المبهر. وفي

٤ نادرًا ما خضعت هذه النماذج للدراسة بطريقة منهجية؛ وللحصول على بعض المؤشرات انظر مقالي:

"'Let us partake, all who believe in Christ': Liturgy in the Church of the East between 1500 and 1850," in *Christliche Gotteslehre im Orient seit dem Aufkommen des Islams bis zur Gegenwart*, ed. Martin Tamcke, Beiruter Texte und Studien 126, 139–53 (Beirut: Orient-Institut Beirut, 2008).

وأعدت اريكا هانتر Erica Hunter عملاً وصفيًا ثاقبًا فيما يتعلق بما يُطلق عليه "المخطوطات السحرية" (magic scrolls):

"Magic and Medicine amongst the Christians of Kurdistan," in *The Christian Heritage of Iraq: Collected Papers from the Christianity of Iraq I–V Seminar Days*, ed. Erica C. D. Hunter, 187–202 (Piscataway, NJ: Gorgias Press).

المستقبل القريب، قد يتضاءل هذان المشروعان أمام المجمع الجديد الذي شرع المسيحيون السوريون الكاثوليك في بنائه بالقرب من مدينة القامشلي.[٥] ويُشكّل الكاثوليك (الباباويون [الخاضعون لبابا روما] Uniates) ثاني أكبر مجموعة من الكنائس في الشرق الأوسط، على الرغم من أن توزيعها غير متساوٍ إلى حدٍ ما: فيوجد عدد أكبر نسبيًا في العراق ولبنان وعدد أقل في مصر. وتأسست هذه الكنائس في عهد إرساليات ما بعد مجمع ترنت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، حيث استفادت من الظروف المستقرة للإمبراطورية العثمانية. ورغم أنها انفصلت عن الكنائس الأرثوذكسية، إلا أن غالبيتها عملت جاهدةً لأن تحتفظ بالسمات المُميّزة لليتورجية الأرثوذكسية والتنظيم الكنسي.[٦]

وقدَّمت إرساليات أخرى، أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين، مجموعات متنوعة من البروتستانتية إلى الشرق الأوسط، والتي اشتملت مؤخرًا على الإنجيلية والخمسينية.[٧] واكتسب البروتستانت عددًا محدودًا من الأنصار (ما بين ١-٥ % من اجمالي عدد المسيحيين في غالبية الدول)، الذين أتى غالبيتهم من أصول أرثوذكسية. ولست بحاجة لأن أذكركم أن مُضيفتنا الحالية، كلية اللاهوت

٥ يتم بناؤه بالقرب من مدينة القامشلي. في يناير ٢٠٠٩ لم يكن مرئيًا من البناء سوى المخططات والأساسات.

٦ للاطلاع على تاريخ الإرساليات الكاثوليكية، انظر:
Bernard Heyberger, *Les chrétiens du Proche Orient au temps de la réforme catholique*, Bibliothèque des Écoles Françaises d'Athenes et de Rome 284 (Rome: École Françaises de Rome, 1994).
ويوصف ظهور الكنيسة الكلدانية (من داخل الكنيسة في الشرق) بصورة تفصيلية في:
Albert Lampart, *Ein Märtyrer der Union mit Rom: Joseph I., 1681–1696, Patriarch der Chaldäer* (Einsiedeln: Benziger Verlag, 1966).
في حين أن Parry and Teule (انظر الحاشية ٢) يقدم المزيد من التفاصيل.

7 Heleen Murre-van den Berg (ed.), *New Faith in Ancient Lands: Western Missions in the Middle East in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries*, Studies in Christian Missions 32 (Leiden: Brill, 2006); cf. Martin Tamcke en Arthur Manukyan (eds.), Protestanten im Orient, Orthodoxie, Orient und Europa 1 (Würzburg: Ergon Verlag 2009); Heleen Murre-van den Berg, "The Middle East: Western Missions and the Eastern Churches, Islam and Judaism," in *World Christianities, c. 1815–1914*, ed. Sheridan Gilley and Brian Stanley, 458–72 (Cambridge: Cambridge University Press 2006).
ويقدم مجلد *Cambridge History of Christianity* مقدمة جيدة في الاطار الأوسع للنشاطات المرسلية في هذه الحقبة. ولكن لم يتم نشر أية دراسات شاملة حول تاريخ الكنائس الإنجيلية والخمسينية في الشرق الأوسط، حتى كتابة هذه السطور.

الإنجيلية في القاهرة، كانت ثمرة من ثمار مجهودات تلك الإرساليات البروتستانتية، والتي ظلت لسنوات عديدة بين أيادي مصرية بشكل كامل.[٨]

أعددت الجزء الأول من المقال في الأصل كمقدمة لمحاضرة ألقيتها في لايدن Leiden، في إطار كان غالبية الحضور فيه دون دراية بمسيحية الشرق الأوسط. وبالنسبة للمسيحيين في الشرق الأوسط، فإن الجزء الأول سيكون مألوفًا بشكل أكبر بكثير. وأظن، في نفس الوقت، أنهم عادةً ما لا يدركون المساهمة الخاصة التي قدمتها مؤسساتهم المسيحية للمسيحية العالمية. وبالتالي، وفي الجزء المتبقي من المقال، أود أن أقدِّم ما أراه، كأحد الغرباء المهتمين، ثلاثة موضوعات وثيقة الصلة بمسيحية الشرق الأوسط: (١) حالة الأقلية المسيحية؛ (٢) تأثير الهجرة والعولمة؛ و(٣) الدين المُعاش في الشرق الأوسط. وسوف أختتم ببعض الملاحظات حول قضايا قد تحظى باهتمام خاص بالنسبة للبروتستانت، بالأخص بروتستانت الشرق الأوسط الذين يأملون في المساهمة في دراسة المسيحية العربية.

٨ يصعب العثور على إحصاءات موثوقة عن المسيحيين في الشرق الأوسط، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن هناك كنائس لا تحتفظ دائمًا بسجلات دقيقة لعضويتها وأيضًا بسبب صعوبة الحصول على تركيبة سكانية جيدة للمنطقة. قارن:

David B. Barrett, George T. Kurian, Todd M. Johnson, *World Christian Encyclopedia: A Comparative Survey of Churches and Religions in the Modern World*, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2001).

وتشير إحصاءات عام ٢٠٠١ إلى النسب التالية عن المسيحيين: العراق ٣,١%، إيران ٠,٥%، تركيا ٠,٥%، إسرائيل ٥,٧%، فلسطين ٨,٥%، الأردن ٤,٥%، لبنان ٥٢,٩%، سوريا ٧,٨% ومصر ١٥,١%؛ أي بمتوسط ٦%. ومن المرجح أن هذه الأرقام قد انخفضت اليوم، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن بعض من هذه الأرقام يبدو بالفعل عليها أنها مرتفعة للغاية بالنسبة لعام ٢٠٠١. على سبيل المثال، تم تسجيل الأرقام الرسمية اللبنانية عند مستويات مرتفعة لأسباب سياسية – وذلك لإخفاء حقيقة أن أعداد كبيرة من المسيحيين قد تركوا البلاد مؤخرًا. وبالنسبة للفترة العثمانية، انظر:

Youssef Courbage, "Démographie des communautés chrétiennes au Proche-Orient. Une approche historique," *Confluences Méditerranée* 66 (2008), 27–44.

وفيما يتعلق بنفس القضية (بعنوان *Chrétiens d'Orient*) انظر أيضًا مقالات أخرى تتعلق بالتركيبة السكانية في مسيحية الشرق الأوسط.

مسيحية الأقلية

إن أهم قضية تُطرح على الطاولة مرارًا وتكرارًا، سواء من مسيحيي الشرق الأوسط أو مسيحيي (وآخرين) من خارج الشرق الأوسط، هي قضية مسيحية الأقلية. كيف ستبقى المسيحية في الشرق الأوسط وسط ما يبدو سياقٌ عدائي متزايد، وكيف يمكن لأقلية صغيرة (في بعض البلدان أكبر من بلدان أخرى، لكنهم كلهم يرزحون تحت نفس الضغوط من التأثير المتراجع اجتماعيًا وسياسيًا) أن تحافظ على نفسها وتساهم بشكل إيجابي في مجتمعات الشرق الأوسط؟ وتحتاج هذه المجتمعات، وأنا لست بحاجة للشرح في هذه الأيام الغامضة، لمواطنين ملتزمين بعمل الخير ليس لجماعتهم فحسب، بل للمجتمع ككل. ولن أدخل في مسألة أسباب حالة الأقلية هذه، حيث أنه سيكون نقاشًا معقدًا حول العناصر التي تشتمل على أفعال سياسية واعية تأتي في مصلحة مجموعة على مجموعة أخرى، والتي قد تؤدي في أشكالها الأكثر تطرّفًا إلى عنفٍ وطردٍ للمسيحيين أو لمجموعات أخرى. ويشتمل الأمر أيضًا على وتيرة أعلى من الحداثة بين المسيحيين، والتي تؤدي، إلى جانب جملة من الأمور الأخرى، إلى العنصر الملموس والأكثر أهمية، وهو انخفاض معدلات المواليد عند المسيحيين عنها عند المسلمين. لكنه يشتمل أيضًا على الادراك والاختيار. فمن السهل أن يصبح المسيحيون أقليةً في المجتمعات التي تعتبر الانتماء الديني هو العنصر الاجتماعي الأكثر أهمية عن تلك المجتمعات التي تعتمد في نظامها الاجتماعي والسياسي على أساس آخر، مثل الأيديولوجيات السياسية (العلمانية) والطبقة والمهنة والخلفية التعليمية.

وبغض النظر عن أسباب حالة الأقلية التي يشعر بها العديد من المسيحيين اليوم، فالأسئلة الأكثر أهمية والموجّهة للمسيحيين في العالم العربي، وفي الشرق الأوسط بشكل عام، هي كيف سوف يعالجون أوجه الخلل ويساهمون في المجتمع ككل ويتجنَّبون التركيز ضيق الأفق على الحدود الدينية (حتى تلك الحدود الموجودة بداخل المجتمع المسيحي) والتي يمكنها أن تعطل بسهولة المصالح المشتركة. هذه ليست بالمهام السهلة في الشرق الأوسط الحالي. ففي الأيام الأولى من الاحتجاجات الشهيرة والمعروفة بالربيع العربي، ربما حفّز الصراع ضد ارث طغاة الماضي والحاضر بعض التحالفات التي تجاوزت

الحدود الطائفية، لكن الآن وسط صعوبات بناء مجتمعات جديدة، من السهل أن تتراجع الشعوب لدواعي الأمن الظاهري لمجموعاتهم الدينية.

الهجرة والعولمة

لم تكن الفتاة التي تحدثت معي بالهولندية في الدير فتاةً استثنائية. فهي مثل الكثيرين، تقضي عطلاتها في المنطقة التي رحل عنها والداها من ثلاثين عامًا. ففي ذلك الزمان، وعلى بُعد خمسين كيلومتر شمال الدير في جنوب شرق تركيا، كانت الثورة الكردية على أشُدها. لقد تغيّر الحضور المسيحي في مصر وسوريا ولبنان والعراق بشكل جذري خلال المائة عام الماضية بسبب ارتفاع معدل هجرة المسيحيين لأنحاء أخرى من العالم. واستطاعت مسيحية الشرق الأوسط، أكثر من أي شكل آخر أعرفه من المسيحية، أن تدرك كيف تصبح مجتمعًا عالميًا. حيث استطاع أعضاؤها أن يندمجوا في مجتمعٍ عالمي، مع حفاظهم على التزامهم العميق نحو أصولهم المحلية والوطنية والإقليمية. ولهذا الأمر آثار على ماهية مسيحية الشرق الأوسط وكيفية تطوّرها في الأعوام القادمة. ونحن نتعامل مع الكثير من هذه الأمور على أنها أمورٌ مُسلّم بها كونها جزء من العالم الذي نحيا فيه، مثل وعينا المتزايد بما يحدث خارج بلداننا، أو الثقافة الشبابية العالمية للموسيقى والأفلام وموقع الفيسبوك.

وتشتمل تأثيرات العولمة على المشاركة المستمرة والمتزايدة للمهاجرين في مناطق أخرى من العالم مع ما يحدث موطنهم. وقد تُدعّم هذه المشاركة المسيحيين في الشرق الأوسط أو تُعقّد حياتهم وذلك لأن هؤلاء المهاجرين وجدوا أنفسهم في سياق مختلف. وترتبط إحدى تأثيرات العولمة بشكل مباشر مع الفكرة السابقة: عادةً ما تكون الهجرة نتيجة تقليل عدد المسيحيين، وهذه العملية تشتد كلما سُلبت المجتمعات المسيحية بشكل متزايد من شبابها الموهوب. بالإضافة لذلك، فالتطورات الجغرافية-السياسية، والتي ليس لها علاقة بالوضع الفعلي في الشرق الأوسط، تزيد من تفاقم الخلافات بين المسلمين والمسيحيين، مما يُصعّب عملية تأسيس مجتمع مدني تحيا فيه الجماعات المختلفة في سلام مشترك.

وتؤثر العولمة أيضًا على طريقة تطور المسيحية في الشرق الأوسط. فهذه الظاهرة تمتد لما قبل القرن العشرين: حيث كانت الإرساليات الكاثوليكية

الرومانية والبروتستانتية أمثلة مبكرة لنفس الاتجاهات: جاءت الأفكار والممارسات الدينية من أوروبا أو الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط وأدت، رغم المقاومة، لظهور أشكال مختلطة من الدين. على سبيل المثال، تأثرت المسيحية الأرثوذكسية بشدة بالثقافة المرئية لدى الكاثوليك (لاحظ رسومات مريم أو الانتشار الواسع للوحة العشاء الأخير لليوناردو) وتأثرت لاحقًا بالتشديد على الكتاب المقدس وبالإيمان الشخصي العامل لدى البروتستانت. ويستمر هذا المزج والتوفيق حتى أثناء حديثنا، ويمكن ملاحظة أحدث مثال على ذلك في تأثير الممارسات الدينية الخمسينية على الجماعات الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية في الشرق الأوسط.

الدين المُعاش

دعوني الآن أعود بشكل موجز لوصف احتفال عيد الرقاد في شمال شرق سوريا، والذي استهَلْتُ به حديثي. فكما قلتُ، يُبرز هذا بشكل عام العديد من الملامح التي تُميّز المسيحية في المنطقة: وهي مزيج من الطقوس الطائفية، والتقوى الفردية والاحتفاليات العامة. وعلى الرغم من عملية تقليل العدد/صناعة الأقلية، والتناقص النسبي للتعداد والمصاعب الاقتصادية والسياسية، إلا أن المسيحيين في الشرق الأوسط نجحوا في خلق ما أراه شكلاً مميّزًا وهامًا من المسيحية اليوم. واستطاع هذا الشكل، وسط توترٍ خلّاق، أن يمزج ويحمل ثلاثة أبعاد مصيرية من المسيحية: عامة وفردية وطائفية. تلك البِنية التي فُقدَت في غالبية الأحيان في الصور المتنوعة من الإيمان الغربي. وأعتقد أنه شكلٌ لا يزال غير مفهوم بشكلٍ كافٍ.

واتجه، فيما مضى، علماء المسيحية الأرثوذكسية الشرقية إلى التركيز في المقام الأول على أمرين: اللاهوت والأدب اللاهوتي. لقد حفروا بعمقٍ وبشكلٍ عام في تاريخ العقيدة وفي الطرق المتنوعة التي تم التعبير عن هذه العقائد في الشرق، وجَنوا ثمرًا وافرًا. واتخذ علماء آخرون مسلك دراسة ليتورجيات الشرق. وحاولوا، مستخدمين تلك النصوص، إعادة بناء ليتورجيات فعلية أو التركيز على العقائد المُعبَّر عنها في الليتورجيات. وعادةً ما كان الاهتمام بالأدب الشعري المسيحي الغني يميل إلى التركيز على العقيدة. وبالطبع هناك خطأ ضئيل في هذا النهج، والذي ترك لنا العديد من الكتب المتعلقة بتلك

الموضوعات الأرثوذكسية مثل دور التجسد أو، رفيقه، التّألُّه. واستُكمِلت مؤخرًا النقاشات حول الأرثوذكسية بدارسات حول دور النزعة القومية وسط المسيحيين الأرثوذكس، بالأخص بسبب التطورات في روسيا وفي بلدانٍ أخرى في شرق أوروبا.

وأعتقد انه حان الوقت أن ننظر للأرثوذكسية من منظورٍ يُطلِق عليه العلماء اليوم "الدين المُعاش" – وهو كيفية ممارسة الدين في واقع الحياة. وسوف تظهر بالتأكيد العديد من الموضوعات السابقة، وسيكون التجسد مبدأً هامًا لنتمسك به كيما نفهم كيف خلق المسيحيون الأرثوذكس حياةً دينية في الوقت الذي يوجد فيه حاجزٌ سائل بين العلماني والمقدس، وبين هذه الحياة والحياة التالية. وسوف يساعد هذا أيضًا على بلورة دور المرأة في هذه العملية، وهو موضوع كثيرًا ما أهمله العلماء عند تناول النصوص الرسمية للاهوت والليتورجية. لكن المرأة هي التي تطهو في أيام الصوم والعطلات، وهي التي تزور الأديرة وتُحضر تربةً مقدسةً عند عودتها أو تجلب خبزًا مباركًا لزوجها وأولادها وهي التي تعلّم – مع الرجل – الأولاد القراءة والصلاة.

الخاتمة

وفي الختام، أترك معكم بعض الكلمات. أرجو أن أكون قد أوضحتُ جليًا أني أعتقد أن هناك الكثير والكثير من الأمور التي تستحق الدراسة فيما يتعلق بالمسيحيين العرب وغير العرب في الشرق الأوسط، حيث لم يتم التطرق إلى العديد منها وكذلك فإن الكثير منها سيكون هامًا للعلماء أو لهؤلاء المسيحيين أنفسهم. لأن موضوعات مثل العولمة وصناعة الأقليات والدين المُعاش هي موضوعات هامة للمسيحيين ولعلماء الدين في كل مكان.

لكن دعوني اختتم أيضًا ببعض الأسباب التي جعلت البروتستانت، في الشرق الأوسط وفي أي مكان آخر، يهتمون بهذه الأسئلة بنفس المقدار الذي يهتم به أي شخص آخر. مال البروتستانت، كما نعلم، إلى تجاهل المسيحية الشرقية. أما الكاثوليك فقد صنعوا لأنفسهم عداوة – على الأقل حتى منتصف القرن العشرين. في حين أن الأرثوذكس بالكاد يمكن أن نطلق عليهم أصدقاء لأنه بدا عليهم الاختلاف الشديد. لكن هذا الأمر تغيّر، هنا في القاهرة وفي أي مكان آخر. وهناك سببان رئيسيان لذلك.

السبب الأول، هو أن البروتستانت، والذين تزايد انخراطهم في الشرق الأوسط، تحوّلوا تدريجيًا إلى احترام التنوع الشديد في المسيحية والذي يعتبر ممكنًا بل وجزء لا يتجزأ من الإيمان. فقد تعلم البروتستانت الليبراليون والمحافظون، كونهم الشهود المسيحيين في منطقة نشأة المسيحية، أن الشرق الأوسط أكثر من مجرد إسلام ويهودية. وأصبحت المسيحية في الشرق الأوسط، بالنسبة للبروتستانت، جزءًا هامًا في المنطقة وليس مجرد شكل من أشكال الإيمان الذي عفا عليه الزمن والذي سوف يتم استبداله بشكل آخر قابل للتطبيق.

والسبب الثاني، وهو – إلحاقًا بالفكرة السابقة – أن البروتستانت اكتشفوا أن الشرق الأوسط لا يقدِّم للعالم المسيحي ماضٍ غني فحسب بل يقدم أيضًا أفكارًا وممارساتٍ قد تساعد البروتستانت على إعادة التفكير في عقيدتهم بأساليب تساعد على مواجهة تحديات العالم الحديث. ويمنح المسيحيون العرب من الأرثوذكس، بما لديهم من إرث غني من الحضور الشعبي والطقوس الطائفية والتقوى الشخصية، طِباقًا (فن مزج الألحان، توضيح من المترجم) صحي نحو التركيز البروتستانتي الضيق على الإيمان الشخصي الذي يُنظر له على أنه الشيء الوحيد المهم. وقد يعلّم المسيحيون الأرثوذكس، من خلال عاداتهم وممارساتهم، البروتستانت بعض الأهمية للأمور المتعلقة بحاسة اللمس والنظر والشّم. ومن الناحية العملية، يستطيعوا تقدير فكرة أن الإيمان يمكن اختباره في طعامٍ مُعد مُسبقًا وفي أزهار منثورة وفي مسيرات وفي ركوعٍ وفي ترديد صلواتٍ وفي رشمٍ للصليب.

مثل هذا النوع من إعادة التقييم للعادات، والتي قوبلت بالرفض في المراحل الأولى من البروتستانتية وعاد التعرض لها من خلال إرساليات الشرق الأوسط، قد يثير أسئلة هامة فيما يخص العقيدة والممارسة البروتستانتية. وقد يصل البروتستانت، في محاولتهم الإجابة على هذه الأسئلة، إلى فهمٍ أفضل للإرث الغني للمسيحية في الشرق الأوسط في كل أشكالها، العربية وغير العربية، والأرثوذكسية والكاثوليكية، البروتستانتية والخمسينية. وربما تجد كلٌ من البروتستانتية الغربية ومسيحية الشرق الأوسط طرقًا للإثراء المشترك، بالإضافة إلى المسيحيين في أماكن أخرى في العالم.

الدكتور هيلين ميرا-فان دِن بيرخ هي أستاذة المسيحية الشرقية ومديرة معهد الدراسات المسيحية الشرقية في جامعة رادبود نايميخن في هولندا.